— ٢ —

وصف جون بولونير للأرض المقدسة
(١٤٢١م)

تمهيد:

قال الدكتور توبلر Tobler لحسن الحظ أننا نعرف اسم صاحب هذا العمل، ثم تابع يحاجج بأن بولونير كان ألمانيا، وفي المقابل رأى الكونت ب. رينات Riantبأنه كان بولندياً، والبراهين التي أقام الدكتور توبلر نظريته عليها هي أن المؤلف استخدم كلمة كلافتيرن Klaftern ، لدى قياسه بالميل الألماني، مع إيضاحه لقرائه كم من الأميال الايطالية تساوي ميلاً ألمانياً واحداً، يضاف إلى هذا قوله بأن فلسطين كانت مقاطعة في الأرض المقدسة، مثلما سكسوني واللورين مقاطعتان ألمانيتان، أو مثلهما توسكانيا ولومبارديا مقاطعتان من إيطاليا.

وأمكننا معرفة تاريخ رحلته، لأنه هو نفسه أخبرنا عن ليلة مرعبة أمضاها في ميناء بيروت وفي عشية عيد القديس توما سنة ١٤٢٢م، وحدثنا أيضاً كيف كان المسلمون يحصدون على جبل الزيتون،في يوم عيد القديس جرجس(٢٣ — نيسان) ١٤٢١م، وبناء عليه من المحتمل أنه ذهب في طريق عودته إلى بيروت، ويتوافق شرحه من حيث الجوهر — لاغالبا — بالكلمات نفسها مع كلمات بوركارد راهب جبل صهيون، مع أنها تختلف عنها بالترتيب، ولقد لاحظت وجود توافق مستمر بين الأماكن التي أريت لبولنير، وتلك التي أريت لفابري وغالباً ما جرى وصف هذه الأماكن بالكلمات نفسها، وهنا لانعرف فيما إذا كان فابري قد نقل عن متقدمه، أو فيما إذا كانا قد كتبا القصة نفسها التي أخبرهم بها الحرس، والقندلفتية.

وترسو أهمية بولونير ومكانته في أنه أول حاج — بقدر ما نعرف — رسم خريطة للأرض المقدسة، مع أن خريطته لسوء الحظ قد تلفت، ومع ذلك تمكن الدكتور توبلر من إعادة رسمها بشكل موفق، واعتماداً

على الاشـارات التي وردت في النص إليهـا، وعلى الخريطة التي نشرها مارينوسانوتو، وليس من السهل في البداية، أبداً، فهم ترتيبات الخريطة، فهي مقسمة بوساطة خطوط، تشبـه خطوط العرض والطول، الموجودة على الخرائط الحديثـة، لكـن يلاحظ أن الخطوط التـي تشبـه خطوط العرض فوق مسـاحة الخريطة عددها ثلاثة وثمانين خطاً، عبرها بالطول ثمانيـة وعشرون خطاً،وأخبرنا الدكتور توبلر بأن ترتيب المربعـات هذه، قـد استخدم من قبل مـوريس البـاريسي، الذي فقدت خـريطته أيضـاً، وقاس بولونير بالمسافـات بين الخطوط، وليس بالخطوط نفسها ، وأطلق على هذه المسافـات اسم المربعات بالنسبـة للعرض، والفراغـات بالنسبة للطول، وهذا يعنـي أن القـارىء لدى عثـوره على مكـان«تحت»كـذا وكـذا«مـربع»، من المتوقع هنـا منه أن يتولى تعـداد المربعـات على طول الحافـة الأطول للخريطة حتى يصل إلى المربع المذكـور، ثم بنظرته تحت أسفل العمود من هناك، سوف يجد المكان، وإذا كـان المذكور موجود في كذا وكذا«مربع»، يتوجب عليه تعداد المربعات على طول نهاية الخريطة، وينظـر على طول الخط، وليـس من السهـل شرح هـذا النظام مـن دون رسم بيـاني، لكن ربما سيكون هذا تكلفاً مـرهقـاً، نرى فيه مـؤلفنا فهيماً تمامـاً وبارعـاً باستخـدام الخريطة الحديثـة، وأخبرنا الدكتـور توبلر بأن موريس الباريسي قد عمل خريطة وفق هذه الطريقة، لكنها فقدت.

ومن الصعب أن نعتقـد أننا نمتلك هنـا رحلة بولونير كلهـا، ومن الصعب جداً أن نقبل بإمكانيـة أن حاجاً حـريصاً مثله، وكاتبـاً تقياً على غـراره، وصف حجـه إلى الأرض المقـدسـة، ومع ذلك لم يقـدم وصفـاً لكنيسة الضريح المقدس، التي كـانت الهدف الرئيسي لرحلته، فضلاً عن ذلك لدى قراءتنا لمطلع كتابه نشعر أننا نتعامل مع قطعة، هذا وليس من الواضح من أي مكـان من نصـه الحالي جـرى فقـدان وصف الضريح المقـدس، مـا لم نفترض أنه كـان في النص فصل مستقل أوقف على هذا

الموضوع، ثم إنه لم يعطنا أية حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، ولابد من أن نقنع أنفسنا باستخراج بعض الاشارات التي فيها بعض معلومات مفيدة حول أوضاع كنائس وبيع في الأرض المقدسة والقدس، وقبيل النهاية كرر نفسه، وأعطانا القائمة المعروفة بالأسماء التي نجدها لدى جميع كتاب رحلات الحج الذين استخدموا«الخلاصة الوافية»، وراجع في هذا المقام رحلتي ثيودورك وفيتلوس، اللتان تقدمتا من قبل، وهنا يتضح أنه على الرغم من أن بولونير قد زار الأرض المقدسة في وقت متأخر كثيراً بعد هذين الكاتبين، نجده يقلد عرضهما تقليداً قريباً، وقد نقل المزيج نفسه من سوء الفهم الجغرافي، من المصادر نفسها، أو مصادر مماثلة.